أغاني التنويم التقليدية في الجزائر: مرآة للهوية الثقافية والأنثوية

د. رشيدة كلاع *
جامعة قسنطينة 1 الإخوة منتوري (الجزائر)
rachida.klaa@umc.edu.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025 / 12 / 11	2025 / 12 / 14	2025 / 12 / 22

مُلخّص البحث

تُعد أغاني التنويم التقليدية، التي تؤديها النساء، أحد أبرز أشكال التعبير الشفهي في الثقافة الشعبية الجزائرية. لا تقتصر وظيفتها على تهدئة الطفل أو مساعدته على النوم، بل تشكل أيضًا وسيلة فعّالة لنقل منظومة من القيَّم الثقافية والاجتماعية والرمزية.

ويتناول هذا البحث أغاني المهد أو التنويم بوصفها مرآة تعكس الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري، من خلال تحليل مضامينها، بنيتها اللغوية، والرموز التي تحتويها. وبيان الدَّور المحوري الذي تؤديه المرأة في حفظ هذا التراث ونقله عبر الأجيال، فالأغنية أداة أنثوية بامتياز، تحمل داخلها مشاعر الأمومة، وهواجس المرأة، وتصوراتها عن العالم. كما مكنت هذه الأغاني من حفظ الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري في جانبها اللامادي.

الكلمات المفتاحية: أغاني التنويم، التراث الشفهي، الهوية الثقافية، المرأة، الثقافة الشعبية.

Abstract

Traditional lullabies, performed by women, are one of the most prominent forms of oral expression in Algerian popular culture. Their function is not limited to helping child fall asleep, but also constitutes an effective means of transmitting a system of cultural, social, and symbolic values.

This research examines lullabies as a mirror reflecting the cultural identity of Algerian society, through an analysis of their content. It also highlights the pivotal role of women in preserving and transmitting this heritage across generations.

These songs have also enabled the preservation of the intangible aspects of the collective memory of Algerian society.

Keywords: Lullabies, Oral tradition, Cultural identity, Women, Popular culture.

* د. رشيدة كلاع البريد الإلكتروني: rachida.klaa@umc.edu.dz

1. مقدمة

يتيح التراث الشعبي الشفهي للأمم الغوص في بنيتها الثقافية والاجتماعية، وطُرق توارثها جيلا بعد جيل. وقد شكلت أغاني المهد/ تنويم الأطفال واحدة من أبرز عناصر هذا التراث في مجتمعنا الجزائري، لغناها الرمزي والدلالي. ولما تضمنه من جوانب ثقافية ذات صلة وطيدة بالهوية الوطنية؛ بوصفها ناقلا للغة والدِّين وطرق التعامل والتربية...

تعد المرأة المجسد لهذا اللّون من الأغاني أو الترانيم باعتبارها المربي الأول للطفل؛ حيث أسهمت في نقل هذه الثقافة ونشرها، في تعبير عن هواجسها ومعاناتها بشكل صريح حينا، ومضمرا أحايين أخرى.

أسهم اتساع الرقعة الجغرافية للجزائر في تنوّع تراثها الشّعبي وغناه، فتنوَّعت الأغاني من منطقة إلى أخرى بفضل عمق تاريخها، وتعدد التأثيرات سواء الاستعمارية أو الحضارية التي مرت بها، متضافرة في تشكيل البنية العميقة للهوية الجزائرية.

يسعى هذا البحث إلى تحليل الأبعاد الثقافية والأنثوية لأغاني التنويم التقليدية في الجزائر، من خلال بحث موسوم: أغاني التنويم التقليدية في الجزائر: مرآة للهوية الثقافية والأنثوية، عبر دراسة مضمونها، سياقها الاجتماعي، ووظائفها الرمزية والتربوية. كما يحاول أن يبرز كيف تمثل هذه الأغاني مرآةً تعكس الهوية الجماعية من جهة، والذَّات النسوية من جهة أخرى، وذلك ضمن إطار نظري أنثروبولوجي وثقافي يأخذ بعين الاعتبار التقاليد الشفهية، والتحولات المعاصرة. وهو ما يطرح إشكالية أساسية مفادها: إلى أي مدى تُجسد أغاني التنويم التقليدية في الجزائر أبعاد الهوية الثقافية والأنثوية؟ وما الوظائف الرمزية والاجتماعية التي تؤديها هذه الأغاني في السياق الشعبي؟

2- مدخل إلى الأدب الشفهي وأغاني التنويم

2-1- ماهية الأدب الشفهي ووظائفه الثقافية: هو ذلك النتاج اللّغوي الشفوي المتداول داخل المجتمع، وهو تراث غير مكتوب تتعدد أشكاله بين: أمثال، وأغاني شعبية، وأساطير، وطقوس دينية، وألغاز...

تنتمي أغاني التنويم إلى الأغاني الشعبية، التي تمثّل نوعا من أنواع الأدب الشعبي، الذي "يتميز بسمة رئيسية تميّز الأدب الشعبي، وهي مجهولية المؤلف، وعامية اللغة ويرتبط هذا النّوع الفني بالوجدان مباشرة"[1]. من ثم كانت الأغنية الشعبية هي "حصيلة ذلك التراث من الأغاني الذي تعرّض للتغيير والتعديل أثناء انتقاله بطريقة المشافهة"[2]. يشكل هذا الأدب جزءً من الموروث الثقافي للأمة، ورمزا لهويتها.

بالبحث في كنه هذه الأغنية نجدها أغنية "تعتمد على اللّحن واللّهجة العامية، للوصول بمضمونها الشعبي إلى أعماق النّاس وانتشارها بينهم"[3]، وبتعبير آخر "هي تلك الأغنية التي ترتبط بمكان وبيئة وجماعة ما من البشر، ومثال ذلك أهل الصحراء وأهل الرّيف... وهي تُتناقل شفاهة من جيل إلى آخر، وتتأثر بالبيئة التي تخرج منها" [4]. تجعل هذه الخصائص من الأغنية الشعبية أكثر ارتباطا بوجدان الأمة وتاريخها، بوصفها التعبير البسيط والصادق لشريحة واسعة من المجتمع.

تتعدد وظائف الأدب الشعبي الشفهي وتتباين تبعا للغاية التي ينشدها هذا الأدب، نذكر منها:

- الوظيفة التربوية: يُحرص من خلال هذا النّوع الأدبي على تربية النشأ، وغرس القيَّم الأخلاقية والدّينية فيه، كي ينشأ متصلا بوطنه وبجذوره التاريخية. سعيا لخلق التوازن الأخلاقي والاجتماعي، وخلق علاقات أسرية مترابطة ومتكافلة.

- الوظيفة الترفيهية: يحمل هذا الأدب جانبا ترفيهيا، يتوسله الرّاوي لإمتاع السامع وتسليته من جهة ، والترويح عن النّفس في خضم المشاكل الاجتماعية من جهة أخرى. كانت أوقات الفراغ الفرصة الأنسب لتحقيق هذا الأدب لغايته.

يقدّم الأدب الشعبي قيّما أخلاقية واجتماعية وتربوية في قالب ترفيهي غايته الترويح عن النفس، من خلال التشويق والهزل، ما سمح لهذا الأدب بالانتشار والانتقال من جيل لآخر.

- الوظيفة الرمزية: تتجسد من خلال أنواع هذا الأدب من خرافات وأساطير ومعتقدات شعبية. يجد الأديب في هذه الرمزية ملاذا للتعبير عن عالمه الداخلي، ومحاكاة الواقع الاجتماعي والسياسي تعبيرا عن أحلامه وآماله اتجاه أحداثه.

- الوظيفة التوثيقية: يُعد هذا الأدب حافظا للذاكرة الشعبية، ولتاريخ الأمم عبر العصور؛ حيث يُقدّم الواقع للقارئ كما يراه الأديب ويأمله.

2-2- ماهية أغاني التنويم ودلالاتها:

يطلق عليها أيضا أغاني (المهد)، واحدة من أقدم الأغاني التي كانت ولا تزال تؤديها المرأة شفهيا؛ لإلهاء الطفل وتنويمه في مراحله الأولى. تتوسل فيها كلمات بسيطة تنمُّ عن عطف الأم وحنانها على وليدها. يرافقها تحريك بسيط للطفل وهو ما يسمى بالهدهدة. قبل الولوج للحديث عن هذا اللون من الأدب الشعبي وجب الوقوف عند معنى هذه الكلمة.

2-2-1- لغة: وردت كلمة الهدهدة بعدة معاني، ففي لسان العرب:

- هدهده: حرّكه كما يهدهد الصبي في المهد. وهدهدت المرأة ابنها أي حركته لينام. وهي الهدهدة.
- هدهد الشيء من علو إلى سفل: حدره.
- والهدهَدُ والهداهِدُ الكثير الهدير من الحمام، وفحل هداهد: كثير الهدهدة يهدر في الإبل، وهدهدة الحمام إذا سمعت دويّ هديره. والفحل يهدهد في هديره هدهدة. والهدهد: طائر معروف وهو مما يقرقر، وهدهدته: صوته".[5]

لا يختلف هذا المعنى عما ورد في المعجم الوسيط: فـ "هدهد الشيء حرّكه، ويقال هدهدت الأم صبيها حرّكته حركة رفيقة منتظمة لينام. وهدهد فلان الشيء: حدره من علو إلى سُفل. والهدهدة: صوت الهدهد، وصوت هدير الحمام". الهدهدة هي صوت غايته الحث على النّوم. [6]

جاءت كلمة "هدهد" لغويا بمعنى: حرّك، حدر، الصوت.

2-2-2- اصطلاحا:

لما كان حب الإنسان وميله للغناء قديم، فقد جعل العلماء هذه الأغاني نوعين: أغاني الهدهدة أو تحريك المهد (**Berceuses**)، التي غايتها تنويم الطفل. أما تلك التي تُؤدى عند مداعبة الطفل فيطلق عليها أغاني

الترقيص (Les enfantines).

أغاني المهد/الهدهدة هي "همهمات هادئة تسير وفق نغمة رتيبة يصحبها غالبا تحريك الطفل أو بعض أجزاء جسمه، كالذراعين مثلا، واهتزاز الأم نفسها. أو من تحمل الطفل، هزات خفيفة تناسب إيقاع الهمهمة الذي تُحدثه بفمها"[7]. يتقاطع المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوي في أنّ الهدهدة هي: تحريك الأم لابنها حركات بسيطة، تصاحبها نغمات هادئة.

3- حضور أغاني التنويم في التراث الجزائري

تتميز أغاني التنويم في الجزائر بخصوصية تنبع من الموروث الثقافي لهذه الأمة.

3-1- الخاصية اللغوية: تختلف أغاني التنويم في الجزائر تبعا للمنطقة التي تنتمي إليها، نظرا للرقعة الجغرافية الشاسعة. بيد أنّها تشترك في توظيفها للّغة العامية/الدارجة، التي تسربت إليها بعض المفردات الفرنسية بفعل طول تواجد المستعمر بالجزائر. إضافة إلى توظيف بعض المناطق للأمازيغية أو الشاوية أو الترقية.

تتميّز أغاني التنويم بشكل عام بـ:

- تكرار بعض المقاطع واللوازم بصوت هادئ ومنخفض، يتلاءم وغاية التنويم، مع احتوائها على كلمات تحث على النوم بيسر مثل: (ني ني، رقدي، الله الله...).

- قِصر هذه الأغاني وبساطتها يسهِّل على الطفل حفظها والتّفاعل معها في مراحل عمرية معينة. من ذلك مقطع متداول بمنطقة الوسط يقول:

ني يا عيني، ارقدي ما تخافي

ماما هنايا، وربي ما ينسى عبادو

جمع هذا المقطع القصير بين حث الطفل على النّوم من جهة، والسعي لإشعاره بالأمان والطمأنينة بوجود أمه معه من جهة ثانية، فكلاهما في كنف رعاية الله ورحمته.

غالبا ما تكون الأغاني التي تُغنى للطفل في هذه المرحلة فردية، "فالأم تُغنِّي لوليدها في نومه ويقظته، وفي بكائه وسكوته، وهذا الغناء يكون نابعا من صدق عاطفة الأمومة، فهي تُغنى بالنغمة أولا وبالكلمة ثانيا، وتكون النّغمة أكثر تأثيرا في الطفل من الكلمة لانعدام إمكانية فهم الكلمة عند الطفل، ونظرا لاعتماد النّغمة على اللّحن الطويل المُشبّع بالتّموجات الصوتية، فإنّ الأغنية الشعبية التي تؤديها الأم هي أداة لتسلية طفلها أولا، وهي وسيلة لتنبيه الطفل وتعريفه بما حوله ثانيا"[8]. شعور الطفل بأنفاس أمه، يبعث في نفسه الراحة، كما أن تلك الأغاني بأنغامها المهمة لطفل في سنه تجعله يستسلم للنوم.

3-2- الحضور الديني والروحي:

تشترك مختلف الشعوب في معاني هذه الأغاني، رغم تباين اللّغات. يدور محورها حول حث الطفل على النوم، عن طريق أغاني قصيرة تبعث على الغفوة والنَّوم. يُحرص فيها على تعداد صفات الطفل الجسدية والمعنوية، التي تُسعد أمه وتُفرحها، وتتمنى أن يتحلى بها عندما يكبر. وفي أحايين أخرى يتم تخويفه بالغول والكلب وكائنات أخرى عندما يأبى النوم.

رغم كون أغاني الهدهدة في الغالب مجهولة المؤلف. إلا أنّ الأم وهي تغنِّيها لطفلها تستدعي المقدس، وكل ما له علاقة بالله والأنبياء والأولياء والصالحين، وحتى الأماكن المقدسة مثل: الكعبة، جبل عرفات، أماكن

العبادة/المسجد ... . رغبة في العون والبركة. من أمثلتها:

نني نني نني ... معاك ربي حني

نني سعدي بيك... يا رب يخليك

نني يا حناني ... ومعاك السبحاني

مزجت الأم في هذه الأغنية بين حث طفلها على النّوم، والدّعاء له بالسلامة وحفظه من أي مكروه. فاستحضارها لما هو مقدس منبعه ديني، وأساسه الثقة بالله.

تَربِتُ الأم على جسد وليدها ليساعده ذلك على سرعة النوم، وهي تحلم بزيارة بيت الله وزيارة قبر رسوله - صلى الله عليه وسلم- فتقول مرددة:

- الله الله الله ... صل على رسول الله
- الله الله الله .... يا حبيب الله
- احنا طفنا بالبيت... وماء زمزم شربناه
- ربط الطفل بالله وأنبيائه وأوليائه يبدأ من المهد، في ملمح روحي يغذّيه الجانب الإيماني للمرأة، وتسليمها بقدرة الله ورحمته.
- تتكرر في أغاني المهد بعض الكلمات التي تدل على النَّوم أو تحث عليه، سواء في الافتتاح أو الختام مثل: نني نني أو قوق **gug** (أمازيغية) بمعنى نم.
- شهدت هذه الهدهدة تغيرا عبر الزمن، ومن منطقة إلى أخرى، لتتماشى مع الظروف المحيطة.

4- البعد الثقافي لأغاني التنويم

4-1- دور أغنية التنويم في التنشئة الثقافية للطفل:

- تسهم أغاني التنويم في غرس جملة من القيّم في الطفل، نحو: الطاعة، الإيمان بالله، الانتماء، واللغة... . كما ترتبط هذه الأغاني بعادات وتقاليد المجتمع الذي تنتمي إليه، مع خضوعها للمناسبات الدينية والاجتماعية...
- تعد أغاني المهد "بداية تعلّق الطفل بتراثه وموروثه الذي يعدُّ خبز الشعوب وزادها. وتهيئ الطفل وتجعله على استعداد لتقبل تراثه وموروثه الشعبي بمحبة ولهفة. وتلعب غريزة الطفل دورها في بحثه الدائم عن المعرفة وتعلّم المزيد" [9]
- لم يكن تنويم الطفل فقط هدهدة، فقد عُبّق بحنان الأم وحنوّها وهي تلامس فلذة كبدها، وجزء من روحها.
- تقول المرأة السكيكدية: [10]

يا بربولْ يا بربولْ ..... نبربرك ونغطيك

تبربرك ونغطيك .... ونحس قلبي يفرح بيك

أفرحوا يا الفلاحة .... والقمح يعود فريك

يا لبربولْ يا الحجلة .... جيبْ النّوم بالعجلة

جيبْ النّوم لوليدي .... يتعشى ويتهنى

يا بربولْ يا بربولْ ..... جيبْ النّوم يرحم بوك

فقد توسلت الأم بالحجلة (طائر) لجلب النّوم لطفلها.

ومن هدهدات ذكر الله ورسوله ما هو متداول بمنطقة الحروش: [11]

صليو على محمد يا ناس الذاكرين

صليو عليه وسلموا يشفع للمومنين

تتعدد المواقف والأماكن التي تهدهد فيها الأم طفلها كي ينام، فمن خلال تلك "الشحنة الداخلية الكبيرة التي يقابلها الطفل بالحركة والضحكة والالتفات، ولا يستطيع أن يقابلها بالكلام، لا يكفيها شكلا للتعبير الهدهدة والترقيص والملاعبة، وتأبى إلا أن تتخذ شكلا آخر، فتنبعث في كلام، في قول منطوق، يتمثل في أغنيات للنوم وللترقيص وللمناغاة وللتسلية وللابتهاج والملاعبة، هي شريك للفعل الذي يُبذل"[12] . تتقصى الأم مختلف الوسائل والحيّل لدفع طفلها للنّوم "فالأم وهي تلاعب الطفل تنشد له، وهي تهدهده لينام تُغني له. وهي تحمله وترقصه تهتف له، وهي تخطو به، تحدو له، مع كل حركة من حركاته، باليدين أو بالعينين، تقابله بكلمات من المهجة، تغنيها له وفيها النّغم والطرب، وفيها الحب والحنان"[13].

تتجاوز أغاني تنويم الأطفال غايتها لتُحمّل بأبعاد إنسانية مختلفة، كثيرا ما تتعلّق بحياة الأم/المرأة، فتلامس حنايا الذات، وما تعج به من مشاعر وأحاسيس داخلية، لتأتي تعبيرا عن عالمها الداخلي الذي كثيرا ما تحيطه بأسوار من الكتمان. فـ " تأتي الأغنية حاملة الشجن الداخلي على الرغم من النّغم الراقص والإيقاع العذب، كأنّها رقص على الجراح، فالأم تُغنى بالولد وتغني له". [14]

رغم الحزن والألم تصر الأم على بعث الأمل في طفلها، حالمة بغد أفضل، وبمستقبل زاهر؛ لأنّ "النّغمة لا تكتئب، أو تبث الشجن فحسب، بل إنّها تثق وتتفاءل، فالشدة لن تدوم، وكيف لا يتفاءل من يُغني لمبعث الثقة والتفاؤل: الطفل. فالأغنية ليست للطفل فحسب، بل إنّها للأم أيضا، بل هي للحياة، هي أغنية الغد والتفاؤل". [15] ارتباط الأم بدينها، وثقتها بربها يجعلانها تؤمن بأن ما تعانيه إلى زوال، وأن جبر الله قريب، وسيكون حفظ ابنها وتوفيقه صورة لتجلى لطف الله وعوضه لها.

4-2- رمزية أغاني التنويم /المهد:

تحمل أغاني التنويم في طياتها ذاكرة إنسانية، معبّقة بصدى الماضي، وحكايات الأمهات، ومعاناة المهمشين والفقراء، فهي أبعد من أن تكون أغاني لتهدئة الطفل وجعل النعاس يغالب جفونه.

تعبر أغاني تنويم الأطفال عن موروث شعبي وثقافي للبيئة الجزائرية المتعددة المصادر؛ حيث تشكل مزيجا بين الإرث الأمازيغي والإسلامي. تحضر فيها الطبيعة، والحيوان والألوان، وكذلك أشكال من الأدعية...

4-2-1- الرمزية في العناصر الطبيعية والحيوانية:

تعرضت أغاني تنويم الأطفال إلى التحريف والتبديل من منطقة إلى أخرى بسبب شفهيتها، وفق سياقات

مجتمعية أثَّرت في التحكم بهذا التغيير. مما "أوجد نصوصا عديدة للأغنية ذاتها في إطار المجتمع الواحد"[16]، من الأغاني التي أفتتحت بكلمة نني: [17]

نني نني أالذيب ..... أمك هربت عند الشيب

خلات الكسرة أطيب ..... والبقرات بلا حليب

نني نني يا لحبيب .... تكبر وتولي طبيب

تلجأ الأم إلى التخوِّيف لتجعل طفلها ينام، وها هي توظف الذيب المعروف في الثقافة الشعبية بأنّه رمز (للفتك، الخسة، الغدر، المكر الخداع، والدّهاء...). كما يحضر الغول برمزيته المخيفة، وبصورته المقيتة لتخويف الأطفال، فتستعمله الأم في هدهدته قائلة: [18]

نني نني يا بربول ....رر ويماك راحت تجيب الفول

ويحكمها ذاك الغول... وياكللها ذاك البزول

بماه أضاضع يا المغبون

تسعى الأم بهذه الأغاني إلى تنوِّم طفلها، لكنها تبث فيها -في الآن ذاته- هواجسها ومخاوفها. تشتكي من الزمن أو الأهل أو المعيشة الصعبة، خاصة فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

قد تتضمن أيضا مشاعر حب لطفلها، أو حفيدها أو زوجها الغائب. وقد تعبر عن أحلام وأمنيات بمستقبل زاهر ومشرق لطفلها، دون أن يمنعها ذلك من تحصينه بالله ورسوله وأولياء الله الصالحين، راجية أن يحفظه الله من كل شر.

جمع أحمد أبو سعد المعاني التي تدور حولها أغاني المهد في: [19]

- الرجاء للولد أن ينام نوما هادئا بحراسة الله والملائكة والرسل وجميع القديسين.
- إعطاء الوعد للطفل بإحضار هدية أو مكافأة له إذا نام.
- إشعار الطفل بالخوف إذا لم ينم.
- إبداء الإعجاب بالطفل وتعداد صفاته وبثه الحب.
- التنبؤ بمستقبل حسن للطفل
- تعليم الطفل بعض الأمور عن طريق الغناء له.

4-2-2- رمزية القدر والزمن:

من نماذجها في منطقة تيزي وزو:

آي لالا نانا، أفرحن أوالني ربي

يا جدتي نانا، أجعلي كلام الله يفرحني

ترمز هذه الأغنية إلى مكانة الجدة داخل الأسرة، ودورها التربوي، فهي مصدر للحكمة والخبرة، كما أنّها الأم الثانية للطفل، ما يعكس القيّم الاجتماعية للمجتمع الجزائري، وتقاليده الأسرية والتربوية.

5- أغاني التنويم وبُعدها الأنثوي

5-1- الأغنية فضاء للتعبير النسوي:

تخالج الأم وهي تهدهد طفلها عديد الأمنيات،التي تصب كلّها في مستقبل زاهر ومفرح لابنها؛ فهي تحلم بحفل ختانه، وبيوم زفافه، ونجاحه في مشوار حياته، وأن يكون ذو مكانة وسمعة طيبة، وأخلاق حميدة، تنم عمن ربته ورعته. كما تحلم بأن ترافقه في رحلة الحج إلى البقاع المقدسة....

ندير لوليدي راية وزغاريد من لوحة لفجار
يجي لي بنات الداية اللي عني بعدوا في الدّار
سعدي بيه سعدي بيه ..... يا رب يخليه
سعدي وليدي جاني... وحججني وأداني
سعدي بها الولد ....راو ما كيفه حد
عنه قل هو الله أحد

ومن أحلام الأم أن ترى هذا الطفل وقد صار رجلا، وله أبناء ترعاهم كما رعت والدهم فتقول:

يا سعدي بيه عاد لي راجل يكبر ونقمط بدريه (ابنه الأكبر)
عاد لي كبير فرحه، قرب باباه يصير
راني دعيته دعوة الخير حزام وسير نتحزم بيه
يا والله حالة وليدي الغالي سيد الرجالة
نطلب ربي يذوقني فاله صلاة العادي يعقب عن تاليه

هي أماني على بساطتها، لكنها تصدر من لسان أم تحاول رسم حياة ابنها ولو كانت في علم الغيب، ما جعل هذه الأغاني صالحة للهدهدة/القماط، وكذا للترقيص في بعض جوانبها.

تتكرر الوعود والأمنيات في أغاني الترقيص لتشابه ما وجدناه في أغاني المهد. ما فتئ حضور الأنبياء والأولياء الصالحين في أغاني الترقيص، والأم تطلب من الله سبحانه وتعالى السند ورعاية طفلها. كما تحضر مخلوقات عديدة في تلك الأغاني عند تخويف هذا الطفل الذي يأبى النوم والخلود للراحة مثل: الغول العجوز المحذبة ...

كمل عليَّ يا فرحة بالي ..... وليدي هزيته في أحضاني
عني الله يدوم أفراحي .....دزو للوالدة قولها أرَّاحي
نحمد ربي العالي كمل عني .....وطيَّر عليَّ شيطاني.

تسعى هذه الأم إلى اقتسام أوقات السعادة مع أقاربها وأحبابها، مصرة على حضور والدتها لمشاركتها فرحتها بوليدها. راجية من الله أن يحفظه من شياطين الإنس والجن. تجلّت المخاوف التي رافقتها قبل ولادتها لهذا الطفل في قولها: (وطيّر عليّ شيطاني).

تأبى الأم إلا أن تستحضر في مخيلتها صورة طفلها وهو شاب. فتراه شابا وسيما وقد حفظ القرآن، وتعلم اللغات. تحلم بيوم عرسه وتفاصيل هذا اليوم، الذي تحرص على تجهيز أدق تفاصيل، يُحضر والده لوازم عرسه،

وتشاركهما في هذا اليوم الأقارب والأحباب، ويُردُّ كيد الحساد والكارهين. مثال ذلك: [20]

سعد أيامي يدوم عليا.... نلحق فرحه وعيني حيّه

ربي يخلي وليد عمران .... إن شاء الله ينجح في القران

لبلاصة حطوه قبطان .... يربح سوري مع العربية

راني لايمة على الجيران .... بعض اللي يدعو عليَّا

وأبَّاه يحضر له قشَّه .... وأمه تنسج له في فرشه

نادو ناسه وجملة عرشه ..... جاني الوالي واللِّي ليَّا

سيده ما يرضاش الحبسه..... وما يدير الحاجة الدونيَّة

تلك أمنيات تراود كلّ أم، فترسمها بشكل لغوي بسيط، ينم عن عفوية اللحظة وصدقها، محاولة جعل طفلها يشعر بمعانيها فيتفاعل معها "لا يمنع صغر سن الطفل من نسبة الشعر إليه، كما لا يمنع من ذلك كونه يعكس أو يُعبّر عن أمنيات الكبار، أو تصوّرهم لما يُحبون أن يكون عليه أبناؤهم وبناتهم في المستقبل؛ لأنّ الطفل يتفاعل منذ سنّ مبكرة مع موسيقى هذا الشعر. وإن كان لا يفهم معناه، ويتمتع بما فيه من إيقاعات"[21]. جعلت المرأة من ترانيم هذه الأغاني فضاء للبوح لطفلها بوعود، وعطاء جديد لا ينتهي.

5-1-1-التعبير عن المعاناة اليومية:

تستغل المرأة الأغاني التي تؤديها لتنويم وليدها مجالا للبوح بما تعانيه من أحزان وآلام، قد يكون مصدرها الزّوج، أو المحيط الاجتماعي، من خلال أنساقه الجائرة في حق المرأة في كثير من الأحيان.

تبرز في هذه الأغاني صورة إنكار الذّات عند المرأة الجزائرية، التي كثيرا ما تضحي لأجل أولادها، متحملة أصناف القهر والمعاناة المفروضة عليها.

تتناول أغاني التنويم عند المرأة موضوعات أخرى تمس حياة الأم ومعاناتها، فتشكو لوليدها ما يختلج بقلبها من معاناة الفرقة والبعد عن أهلها، وسوء معاملة زوجها أو أمه.... فتقول وهي تراقص طفلها:

يا قمرة يا وقادة.... والغالي وين هي بلاده

يا قمرة يا لوخية ..... شكيتك بالنّية

على ما صاير بيَّ ..... من الشايب وأولاده

يا قمرة يا لميمة .....شكيت لك بكليمة

الراجل حشد غيمة ..... والعمة النقرادة

يا قمرة يا وناسة..... في البحر غطاسة

حليل اللي مفارق ناسه .... واش يكون رقاده

انتقلت المرأة/الأم من الحديث عن طفلها إلى مناشدة العون والسند من الله، إذ تسر للقمر بالأذى الذي لحق بها من عائلة زوجها، بعدما فقدت الأنيس والصديق في ظل بعدها عن أهلها، فوجدت في (القمرة) الحافظ لسرها.

دفع خوف الأم من العين والحسد إلى جعلها تستعين بالله ورسوله وبعض الطقوس الاجتماعية التي يُعتقد منعها للأذى والعين :

صلوا على رسول الله .... وزيدوا بالصلاة عليه
والله وبركة الحجاج ..... يديم الفرح لَمَاليه
أمي سمتني الحوتة ..... والحوت في البحر عوام
يا الله لحقنا حديث النّاس علاش نطول في الأيام

تحضر في أغاني التنويم أنساق اجتماعية عديدة، أفرزتها الحقب التاريخية المختلفة التي مرت بها الجزائر، ما جعل المرأة تقتنع بقدرة طقوس بعينها على الحماية والحفظ من الأذى، والعين المؤذية.

5-1-2- تكرار صورة الأم المضحية:

ما فتئ الأدب الشعبي أن يكون مرآة حيَّة لحياة الشعوب، وللطقوس والممارسات المختلفة في المجتمع الذي تنتمي إليه. تحمل الهدهدة "علاقة بالموقف الاجتماعي من الأولاد والنساء وهي تحمل من الدلالة على مجتمعها الذي نشأت فيه وأخلاق أهلها وعاداتهم ما لا يحمله الشعر المُتقن أو الرسمي" [22]. ومن النماذج الواصفة لمعاناة أم من تبدُّل ابنها: [23]

أُمُمو أُممو
يا عمارة دار أمو
جاب التمر في كمو
ويقولها خبي يا مرتي
لا تشوفني والدتي
وتحاشمني أنا ونت
يا الطُلبة يا العُلما
وليدي دز برية
سرحوني نروح ليه
لَنُقتل روحي بيديا
الله الله ربي لا حال يدوم
يرقد بابا وليدي
ويجيه النّوم

لعل الحديث هنا للجدة، وهي الأم الراعية والحانية على الأبناء والأحفاد، وهي هنا تشكو لحفيدها متذمرة من تحوُّل حب ابنها عنها إلى زوجته، فيأتي بالتمر خلسة في (كمو)، ويطلب من الزوجة أن تخفي ذلك عن أمه خوفا من غضبها عليه.

تنزاح الجدة إلى موضوع أهم وهو وصول رسالة من ابنها المحبوس لدى الاستعمار، فهي تستجدي الطُلبة والعلماء بالسماح لها بالذهاب إليه، وإلا قتلت نفسها بيدها احتجاجا على هذا الرفض. لتتذكر أنها تحادث الطفل فتطلب منه النّوم.

استمر التّغني في كثير من الهدهدات عن الاستعمار وممارساته، رغم تغيّر الظروف/الاستقلال. فالزوجة/الأم تعبر- رغم الألم والحزن- عن فخرها باستشهاد زوجها في كفاحه ضد المستعمر، من نماذجه حديث الأم الأوراسية عن زوجها الشهيد في هدهدتها لطفلها، راسمة مستقبلا زاهرا لابنها فتقول: [24]

سُوسَم أَمَمِي بَركَا كإيمَطَاوَن (أسكت يا بُنَي توقف عن البكاء)

سُوسَم أَمَمِي وَذْيَالِي وَاسْ (أسكت يا بُني سَيطلع النهار)

سُوسَم أَمَمِي بَركَا كإيمَطَاوَن (انهض يا بُني انهض نمشي)

سُوسَم أَمَمِي وَذْيَالِي وَاسْ، وَذْيَالِي وَاسْ، وَذْيَالِي وَاسْ، وَذْيَالِي وَاسْ... (أبوك مات في سبيل الوطن، في سبيل الوطن، في سيبيل الوطن...)

أَكْرَدْ أَمَمِي (انهض يا بُني)

وَاكرَد أَنُقِير (انهض نمشي)

بَابَاك يمُوتْ (أبوك مات في سبيل الوطن)

فَاتمَذرَانْنَتَمُورَتْ، فَاتمَذرَانْنَتَمُورَتْ (عندما يكبر ابني ويصير رجلا)

أَكْرَدْ أَمَمِي (انض يا بني)

وَاكرَد أَنُقِير (انهض نمشي)

بَابَاك يمُوتْ (أبوك مات)

فَاتمَذرَانْنَتَمُورَتْ، فَاتمَذرَانْنَتَمُورَتْ (في سبيل الوطن)

أَذِقَعْمَرْ مَمِي (يكبر ولدي)

وذِيْعَاذذَارْقَازْ (أحضر له زوجة/أزوجه)

أَسِيْدَّاويْغَأسْليثْأَذِ سَاو أَخَامَثْ (وتصبح له عائلة/دار أو بيت)

قَوقْ أَمَمِي قُوقْ (اهدأ يا بُني)

قَوقْ أَمَمِي قُوقْ (اهدأ يا بُني)

قَوقْ أَمَمِي قُوقْ (اهدأ يا بُني)

استغلت الأم (الشاوية) لحظة تنويمها لطفلها لتحوّر كلمات الأغنية بما يصف حالها. جاءت الأغنية تنفيسا عن الأحزان التي تعتصر قلب هذه الزوجة، والتي تركها زوجها وفضّل أن يلحق بأخرى رومية. (يُوبُثَارُومِيث يَدْجَا يَمَاكْ). متناسيا العشرة، متناسيا ابنه وعائلته. فتقول: [25]

سُوسَم يا علي، سُوسَم أَمَمي (لا تبك يا علي، لا تبك يا بُني)

ونَقَأعلاَو إِيبَابَاك (سننسج برنوسا لأبيك)

بَاباَاك أيروح يَبعذاك (أبوك الذي ذهب وتركك)

ونَقَأعلاَو ذو قشابي (سننسج برنوسا وقشابية)

بَابَك أيروح يَنتَعْلَغْوَابِي (أبوك الذي ذهب جهة الغابات)

بَاباَاك أيروح يَبعذاك (أبوك الذي ذهب وتركك)

يُويُثَارُومِيث يَدْجَا يَمَاكْ (إستبدل أمك بالرومية)

أَنَقَأعلاَو ذَالمَالَفْ (راح ننسج برنوس من الملف)

يَمَاكْ ثِيلْ و ثَتْشَفْ (أمك التي تبكي وتثير الشفقة)

تعددت الآلام التي تبثها الأم من خلال هدهداتها لابنها، وفق ما تفرضه الظروف والسياق "فنجد شكاية الأم من الآخر المستعمر، الذي ظلمها وافتك منها فلذة كبدها. فصدى هذه الأم المكلومة لا يزال يتردد إلى اليوم على ألسنة المهدهدات في مناطق متعددة من الجزائر. وقد تكون الشكاية من الزوج الذي غادر لسبب أو لآخر، وتركها تُكابد مشاق الحياة لوحدها، وقد تكون على لسان طفل يتيم ماتت أمه وتركته لزوجة الأب، التي لم تحسن إليه أو ترحمه"[26].

5-2- مشاركة المرأة في تشكيل الذاكرة الثقافية:

شاركت المرأة في الحفاظ على اللّغة ونقلها جيلا بعد جيل، بوصفها رمزا للهوية الوطنية. كما ساهمت في نقل هذا اللّون من الأغاني، باعتباره تراثا غير مادي وحمايته من الضياع.

من نماذجه بمنطقة الجنوب:

يا وليدي نرقد وأنت في حضني، والدنيا تقسى عليا

تحمل هذه الأغنية بعدا اجتماعيا/عاطفيا، فخوف المرأة على وليدها، يجعلها تحتضنه وتحن عليه. وفي الآن ذاته تتخذ منه أنيسا تبوح له بما يعتريها من حزن وألم.

كان للتطور التكنولوجي دور مهم في انتقال أغاني التنويم من طابعها الشفهي إلى المسجل، بفضل التلفزيون، والأغاني المسجلة، والهاتف النقال...ما سمح للأجيال الجديدة بالتعرف على هذا التراث الشعبي الشفوي، المتنوّع والذي يتعدى المنطقة التي يعيش فيها، ونقاط التشابه والاختلاف بينهما.

أخذ الاهتمام بهذا الأدب يزداد، بفضل رعاية الدولة، ودعوتها لحماية التراث الشعبي للأمة، وحفظه من الضياع والاندثار. بدأ التأليف والكتابة حول هذا الأدب يتزايد. كما تمّ توجيه الدراسات الأكاديمية نحو إجراء البحوث، وفتح التخصصات في الأدب الشعبي، تشجيعا للاهتمام بهذا الأدب.

أسهمت الجمعيات الثقافية والفنية في التعريف بهذا الأدب وإيصاله للآخر، وتسجيله كتراث وطني متعارف عليه.

6- خاتمة

1- تعد أغاني التنويم في الجزائر جزء من التراث الثقافي والشعبي للمجتمع الجزائري المتنوّع.

2- تتعدد وظائف الأدب الشعبي الشفهي وتتباين تبعا للغاية التي ينشدها، بين الوظيفة التربوية، والترفيهية، والرمزية، والتوثيقية.

3- تعد أغاني التنويم/المهد، واحدة من أقدم الأغاني التي كانت ولا تزال تؤديها المرأة شفهيا؛ لإلهاء الطفل وتنويمه في مراحله الأولى. تتوسل فيها كلمات بسيطة تنمُّ عن عطف الأم وحنانها على وليدها.

4- عملت المرأة على الحفاظ على الهوية الثقافية للجزائر من خلال تضمين أغانيها جملة من القيم والعادات والتقاليد لترسيخها في الطفل، وتعريف الأجيال بها.

5- تختلف أغاني التنويم في الجزائر تبعا للمنطقة التي تنتمي إليها. لكنها تشترك في تكرار بعض المقاطع واللوازم بصوت هادئ ومنخفض، يتلاءم وغاية التنويم. إضافة إلى تميزها بالقصر والبساطة.

6- تستدعي الأم وهي تغنّي لطفلها كل ما له علاقة بالله والأنبياء والأولياء والصالحين، وحتى الأماكن المقدسة، في ملمح روحي يغذّيه الجانب الإيماني للمرأة، وتسليمها بقدرة الله ورحمته.

7- تتجاوز أغاني الطفل غاية التنويم، لتُحمّل بأبعاد إنسانية مختلفة، كثيرا ما تتعلّق بحياة الأم/المرأة. تأتي الأغنية حاملة للشجن الداخلي على الرغم من النّغم الراقص والإيقاع العذب.

8- تعبر أغاني تنويم الأطفال عن موروث شعبي وثقافي للبيئة الجزائرية المتعددة المصادر؛ حيث تشكل مزيجا بين الإرث الأمازيغي والإسلامي. تحضر فيها الطبيعة، والحيوان والألوان، وكذلك أشكال من الأدعية...

9- تحكمت سياقات مجتمعية في تغيير وتحريف أغاني تنويم الطفل بسبب شفهيتها، ما أوجد نصوصا عديدة للأغنية ذاتها في إطار المجتمع الواحد.

10- شكل الأدب الشعبي مرآة حيَّة لحياة الشعوب، وللطقوس والممارسات المختلفة في المجتمع الذي تنتمي إليه. عبّرت أغاني تنويم الطفل عن المجتمع الجزائري، وأخلاق أهله، وعاداتهم، أكثر مما حمله الشعر الرسمي.

11- مكنت أغاني التنويم من حفظ الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري في جانبها اللامادي؛ حيث شاركت المرأة في الحفاظ على اللّغة ونقلها جيلا بعد جيل، بوصفها رمزا للهوية الوطنية. كما ساهمت في نقل هذا اللّون من الأغاني، باعتباره تراثا غير مادي وحمايته من الضياع.

12- أسهمت الدولة في حماية التراث الشعبي للأمة، وحفظه من الضياع والاندثار. فشجعت على الاهتمام بهذا الأدب من خلال توجيه الدراسات الأكاديمية نحو إجراء البحوث، وفتح التخصصات في الأدب الشعبي.

13- أسهمت الجمعيات الثقافية والفنية في التعريف بهذا الأدب وإيصاله للآخر، وتسجيله كتراث وطني متعارف عليه.

إحالات البحث

[1] حلمي بدر، أثر الأدب الشعبي الحديث، دار المعارف، مصر، ط 1، 1986، ص 43.

[2] حسين عبد الحميد ، أحمد رشوان ، الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل الإسكندرية، د ط، 1993، ص 114.

[3] علي الخليلي ، أغاني العمل والعمال في فلسطين، دار ابن خلدون، بيروت، ط 1، 1989، ص 13، 14.

[4] شيماء صلاح . موسيقى الشعوب، مجلة الموسيقى العربية، المجمع العربي للموسيقى، ص 3.

[5] جما ل الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، ط 3، د ت، ج 6، مادة (هدهد).

[6] المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، ط 2، 1972، ج 2، مادة (هدهد).

[7] أحمد أبو سعد ، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، دار العلم للملايين، ط 2، 1982، ص20.

[8] رائدة أحمد علوان ومحمد طه غوانمة ، دراسات تحليلية لأغاني الأمهات التراثية بالأردن، المجلة المصرية للدراسات المتخصصة، د ب، ع 24، 2019، ص 162.

[9] علي عبد العالي ، وظيفة اللّحن الشعبي في غنا الطفولة، مجلة الحياة الموسيقية، وزارة الثقافة، مديرية المسارح والموسيقا، سوريا، ع 35، 2005، ص 9.

[10] رواية السيدة زروق ياقوتة منطقة سكيكدة.

[11] رواية السيدة كريم فاطمة (78سنة)، ولاية المسيلة.

[12] أحمد زياد محبك ، من التراث الشعبي دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط 1، 2005، ص 253.

[13] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[14] المرجع نفسه، ص 256.

[15] المرجع نفسه، ص 255.

[16] أحمد مرسي . الأغنية الشعبية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، د ط، 1970، ص 13.

[17] ينظر: عبد القادر نطور. الأغنية الشعبية ودورة الحياة، أغاني الطفولةفي الشرق الجزائري دراسة أدبية، ص 327.

[18] رواية السيدة زروق ياقوتة (70) ولاية سكيكدة.

[19] أحمد أبو سعد ، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ص 23-41.

[20] تنتمي هذه الأغنية إلى منطقة قمار، جمع الطالبة لقريدة رشيدة.

[21] الربعي بن سلامة ، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد، قسنطينة، ط 1، 2009، ص 92 ، 93.

[22] أحمد أبو سعد ، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ص 107.

[23] رواية السيدة: زياد مليكة (63سنة) ولاية أم البواقي.

[24] رواية السيدة علجية أحمد (62)، ولاية باتنة، آريس.

[25] نفسها.

[26] إكرام بن سلامة . أغاني الهدهدة والتنويم في الشرق الجزائري قراءة سياقية، مجلة منتدى الأستاذ، قسنطينة، ع 19، جانفي 2017، ص 268.

مراجع البحث

1- أحمد زياد محبك ، من التراث الشعبي دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط 1، 2005.

2- أحمد أبو سعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، دار العلم للملايين، ط 2، 1982.

3- أحمد مرسي . الأغنية الشعبية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، د ط، 1970.

4- إكرام بن سلامة . أغاني الهدهدة والتنويم في الشرق الجزائري قراءة سياقية، مجلة منتدى الأستاذ، قسنطينة، ع 19، جانفي 2017.

5- جما ل الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، ط 3، د ت، ج 6.

6- حسين عبد الحميد ، أحمد رشوان ، الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل الإسكندرية، د ط، 1993.

7- حلمي **بدر**، أثر الأدب الشعبي الحديث، دار المعارف، مصر، ط 1، 1986.

8- رائدة أحمد علوان ومحمد طه غوانمة ، دراسات تحليلية لأغاني الأمهات التراثية بالأردن، المجلة المصرية للدراسات المتخصصة، د ب، ع 24، 2019.

9- الربعي بن سلامة ، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد، قسنطينة، ط 1، 2009.

10- رشيدة لقريدة جمع الطالبة من منطقة قمار.

11- زروق ياقوتة (70) رواية السيدة من ولاية سكيكدة.

12- شيماء صلاح . موسيقى الشعوب، مجلة الموسيقى العربية، المجمع العربي للموسيقى.

13- علجية أحمد (62)، رواية السيدة من ولاية باتنة، آريس.

14- علي الخليلي ، أغاني العمل والعمال في فلسطين، دار ابن خلدون، بيروت، ط 1، 1989.

15- علي عبد العالي ، وظيفة اللّحن الشعبي في غنا الطفولة، مجلة الحياة الموسيقية، وزارة الثقافة، مديرية المسارح والموسيقا، سوريا، ع 35، 2005.

16- فاطمة كريم (78سنة)، رواية السيدة من ولاية المسيلة.

17- عبد القادر نطور. الأغنية الشعبية ودورة الحياة، أغاني الطفولة في الشرق الجزائري دراسة أدبية.

18- المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، ط 2، 1972، ج 2.

19- مليكة زياد (63سنة) رواية السيدة من ولاية أم البواقي.